المواطنة الالكترونية الجديدة
ثقافة الاندماج التكنولوجي وإشكاليات الهوية الثقافية

فريد صغيري
جامعة تونس

مقدمة:

لقد توسط إعلام الفضائيات وشبكات الانترنت العلاقات الاجتماعية، واخترق خصوصيات الأذواق الفردية والنسيج الاجتماعي اليومي لجمهور المستخدمين. معنى ذلك أن الوسائط الاتصالية الجديدة، قد تحولت من خلال ممارساتها وصورها ورموزها، إلى محرك أساسي للتغيير الاجتماعي والثقافي، وذلك بفعل تنوع وظائفها الترفيهية والتعليمية والثقافية.

فمن خلال هذه الوسائط، تحوّل التفاعل الاجتماعي إلى نسق من التغيرات الثقافية والاجتماعية المترابطة والمتحررة من الآليات التقليدية للضبط الاجتماعي، الذي تمارسه الجماعات الأولية والثانوية، والتي تتنازل لفائدة جماعات جديدة متنوعة وغير محددة الهويات، تتسرب عبر الشبكات الإلكترونية دون إجراءات رقابية واعية. وبذلك انتقل مجال الفعل الاجتماعي إلى نوع جديد من المواطنة أصبحت معها الكفاءة الاجتماعية تقاس " بشفافية الفاعلية التواصلية بين المؤسسات والأفراد والجماعات، حيث لا تقاس العناصر الثقافية إلا بإنتاجيتها وقابليتها للتداول، مثلما لا تقاس الآراء والقيم إلا بآلياتها الاتصالية، وبحجم وشكل المعلومات المصاحبة لها.

الأمر الذي يدعو إلى التساؤل حول الخصائص المتغيرة لهذه المواطنة الالكترونية الجديدة في ظل الاندماج والتقارب المعلوماتي الحاصل في جميع مجالات الحياة، حيث طرح المتغير التكنولوجي إشكاليات اجتماعية وثقافية عديدة في إطار نسق جديد من المفاهيم حول علاقة الواقعي بالافتراضي، وإمكانية تحوّل الفضاءات الافتراضية إلى بديل وملاذ يلجأ إليه الفرد لتحقيق الذات، وإدراك الحاجات الوجدانية والتواصلية التي عجز عن تحقيقها على أرض الواقع.

فما هي انعكاسات هذا التغيير الاجتماعي ومقتضيات المواطنة الإلكترونية الجديدة على الخصوصيات الثقافية الأصيلة للمجتمعات المحلية؟

1- اندماج التكنولوجيات: تقارب المعلومات والوسائط الإعلامية:

ارتكزت التحولات التقنية التي عرفتها المجتمعات البشرية في أواخر القرن العشرين في إطار ما يعرف بمجتمع المعرفة، على تقارب الثقافات الثلاث التي كانت وراء تفجر الثورة المعرفية وهي: ثقافة الحواسيب، وثقافة الاتصالات Télécommunications، و ثقافة المحتوى والوسائط"Media &Content " وما يتبع ذلك من وسائط متعددة سمعية وفيديوية رقمية.

ذلك أنه من أهم عوامل هذه النقلات المعلوماتية و انتشارها الواسع هو الانخفاض الكبير في كلفة الحواسيب والاتصالات بصفة عامة والتطور السريع للتقانات التي تستجيب لحاجات المستخدمين المترابطين بما في ذلك تقنيات المسح الضوئي "Scanning" ومعالجة الصور"Imaging" والذواكر Memories" والنسخ"Copying".

ومن خلال هذا الاندماج السريع لمكونات ومعدات تخزين الأصوات والصور وآلات المعالجة الحاسوبية، يتمكن مستخدمو هذه التقانات من إدراك طاقات وإمكانيات هذا الدمج التكنولوجي وتلمس أثره القادم، الذي يؤكد قدرة الإنسان على توسيع معارفه وتخزينها وترتيبها، وإنتاج المعلومات وبثها في الحال والتعامل معها واستخدامها من جديد . [1]

1-1 اندماج التكنولوجيات المعلوماتية:

لقد ساهم دمج المكونات الأساسية للحواسيب في شرائح إلكترونية متناهية في الصغر، في صناعة حواسيب أكثر أداء وأقل كلفة وأصغر حجما ووفرت أنظمة التشغيل المعتمدة على الرسوم وقائمات الاختيار واستعمال الفأرة سطحا بيّنيا ملائما يمكن المستخدمين من سهولة استعمالها وانتشارها، ومكن اكتشاف تقنية تبادل المعلومات عبر الشبكات بواسطة الحزم من تأمين سيولة حركة نقل المعلومات على الشبكات والمزيد من التحكم في عملية تبادلها عبرها.

إذ يمثل البروتوكول القياسي TCP لتبادل المعلومات عبر الشبكات عنصرا أساسيا في ربط شبكات متباينة والتحكم في عمليات إرسال ونقل واستقبال المعلومات من خلال تطوير برامج وآليات عمل مختلفة.

كما يعتبر اكتشاف الألياف الضوئية التي عوضت الأسلاك التقليدية سببا رئيسيا في إنجاح مسار هذا الاندماج التكنولوجي، من خلال بناء الشبكات الرئيسية "Backbone" التي تتمتع بقدرة عالية على استيعاب كميات هائلة من المعلومات وبسرعة فائقة لتأمين تبادلها.

بينما يعد اكتشاف مفهوم النصوص والوسائط المعالجة ثورة في حد ذاتها، من خلال الانتقال من الصيغة الهرمية الخطية في الربط بين الأشياء إلى الصيغة التجميعية التأليفية التي تمكن من التنقل بين الأشياء المرتبطة فيما بينها في جميع الاتجاهات على نحو يشبه المنهج الذي يعتمده العقل البشري في الربط بين الأفكار لمعالجة موضوع معين.(2)

فالهرمية كمنهج في التنظيمات التقليدية "كانت تهدف في الأساس إلى التقليل من تكاليف الاتصال، والقدرة على التحكم والسيطرة والتنسيق، وقد وفرت ثورة الأنترنات هذه الفوائد دون حاجة إلى الهرمية التنظيمية – بمعناها القديم على الأقل – وذلك باعتماد الشكل الانسيابي من التنظيمات". (3)

وقد نتج عن هذا التصور اكتشاف الشبكة العنكبوتية التي ولئن مكنت الإنسانية من حفظ ذاكرتها – وبناء رصيد معرفي عالمي يمكن الشعوب من المشاركة في إثرائه في إطار مجتمع المعرفة –فهي قد ساهمت أيضا في تغيير التنشئة الاجتماعية العامة للأفراد وإعادة صياغة الفكر الثقافي والاجتماعي وتحويله إلى جملة من الوظائف النمطية التي تنسجم مع النسق العالمي للإنتاج والاستهلاك، مما أدى إلى التحول من الاندماج إلى الإدماج في إطار ما تخلفه النماذج الوافدة من السلع والخدمات المعلوماتية وتأرجحها بين الانتظارات الاجتماعية والحاجات الحقيقية للأفراد والجماعات. (4)

إن مختلف هذه التقنيات التي تعلقت بالمعلوماتية وشبكات الاتصال اندمجت مع بعضها البعض لتشكل محيطا واحدا ومتكاملا يوفر للمستفيد باستعمال مجرد حاسوب شخصي وجهاز ربط بالشبكة، عالما افتراضيا ينمو باستمرار ويزخر بأرصدة معرفية هائلة موثقة في عشرات المليارات من صفحات الواب، كما يمكنه من تبادل المعلومات والملفات والمشاركة في منتديات الحوار مع من يرغب فيها من المرتبطين بالشبكة حيثما كانوا ومتى أرادوا ذلك، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاندماج قد انطلق منذ سنة 1995عندما اكتمل اكتشاف وتطوير التقنيات التي سبق ذكرها، وأعلنت شركة ميكروسوفت عن صدور نظام التشغيل ويندوز 1995الذي وفر سطحا بينيا رسوميا للحواسيب الشخصية من نوع IBMPC والحواسيب الملائمة لها.(5)

2-1 الوسائط المتعددة، نموذج للتقارب التكنولوجي:

تعرف الوسائط المتعددة أو الوسائط المتكاملة المندمجة بأنها "...جهاز الحاسوب الناقل للصوت والحرف والصورة". (6)

ورغم هذا التعدد في التسميات نجد أنها تؤدي كلها إلى نفس معنى المصطلح الفرنسي "Multimédia" الذي يقصد به مزج التكنولوجيا السمعية البصرية مع تكنولوجيا الحاسب الإلكتروني، وقد تم تسهيل عملية المزج باعتماد التكنولوجيا الرقمية" Digital technologique" وتعنى هذه الوسائل متعددة الوسائط بعرض المعلومات ومعالجتها في شكل نصوص بإضافة كل أو بعض العناصر التالية:

- الصورة: يتم إدخالها بطريقة رقمية من خلال آلة تصوير رقمية " Appareil photo numérique " أو باستعمال الماسح الضوئي "Scanner"

- الصوت: ويتكون من تسجيلات صوتية خارجية أو مؤثرات صوتية مولدة من آلات مختلفة وهو ما يعرف بمصطلح "ميدي" midi.

- مقاطع الفيديو: وهي مشاهد حية ملتقطة بواسطة آلة الكاميرا تتم مشاهدتها باستخدام جهاز الفيديو.

- الرسوم المتحركة "Gifs animées" وهي عبارة عن عروض متتابعة لمجموعة من الصور الثابتة تعطي الانطباع بتحركها على الشاشة. (7)

إن سهولة الوصول إلى شتى أنواع المعلومات وتبادلها مع الآخرين، قد سهّل على المجتمعات الإنسانية تحقيق قدر كبير مما يعرف بالديمقراطية المعرفية أو الديمقراطية المعلوماتية من خلال ما حققته الثورة التكنولوجية الشاملة في جوانبها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المختلفة ورغم وجود عديد المؤشرات التي تدل على أن الطريق مازالت طويلة قبل التمكن من تحقيق غاية كونية كهذه بفعل التفاوت الكبير في النسب المأوية بين عدد مستعملي الحواسيب أو المبحرين عبر الانترنت أو المتراسلين إلكترونيا بين الدول المتقدمة (أمريكا وأوروبا مثلا) وبقية دول العالم(8)، فإن ذلك لا ينفي حصول ما يعرف بـ"التقارب التكنولوجي" الذي يعتبر نتيجة للتطورات اليومية الحاصلة في تكنولوجيا الوسائط المعلوماتية وما واكبها من منتجات وخدمات غطت جميع مجالات الحياة، فالتقارب بهذا المعنى" التقاء لتكنولوجيات مختلفة معا، أو انصهار لتكنولوجيتين أو أكثر لتكونا شيئا جديدا ومختلفا يحمل صفات كل منهما على حدة، إلاّ أنه يكون متفردا تماما في صفاته.

من أجل ذلك تفوقت التكنولوجيات والمنتجات الجديدة الناتجة عن ذلك التقارب على ما تقوم به الأدوار الأصلية لكل منها بدرجة كبيرة، ويبدو ذلك واضحا في التقارب بين التكنولوجيتين الأعظم قوّة والأكثر انتشارا: المعلوماتية والوسائط الإعلامية". (9)

وفي فترة مضت كان هناك فصل واضح بين هذه الأجناس التكنولوجية حيث تمّ استخدام الكمبيوترات في معالجة وإدارة المعلومات على شكل أرقام ونصوص، بينما تستخدم أجهزة الراديو والتلفزيون والهاتف في نقل الصور والأصوات في حين تغيّر هذا التقسيم في الوقت الرّاهن وتحوّل هذا الفصل إلى وصل وتفاعل بين هذه الأطراف، لأنه كلّما انصهرت الحواسيب والتليفزيونات والهواتف معا، كلّما برزت إلى الوجود منتجات جديدة مختلفة لها من القدرات التقنية ما هو أكثر من أيّ وقت مضى.

ويمكن أن نفهم هذا التقارب والانصهار والعناصر المباشرة المؤدية إليه في ضوء انتشار تكنولوجيا الحوسبة والخطوات الكبيرة التي خطّتها لتصبح جزءا من منتجات كثيرة موجودة بيننا. إذ بمجرد تطبيق هذه التكنولوجيات تصبح الأعمال المنجزة واقعا تكنولوجيّا مختلفا (10)، يؤثر بالضرورة على العلاقات البشرية وحركة تنقل الأفكار والممارسات والتجارب الثقافية والاجتماعية.

2-الجماعات الافتراضية وطبيعة المواطنة الالكترونية الجديدة :

تعتبر الجماعة الافتراضية "Communauté Virtuelle"، مجالا اجتماعيا جديدا لانتماء مجموعات مختلفة من الشخصيات الافتراضية على شبكة الانترنت، يتقاسمون شواغل واهتمامات مشتركة، خصوصا بعد أن تقلص الحجم الزمني الذي كان يخصصه الأفراد في الاحتكاك والتفاعل الاجتماعي المباشر.

حيث تشكلت أوّل جماعة افتراضية من نوعها في الثمانينات، لما كان الاتصال يتم عن طريق حواسيب باهظة الثمن، فأمكن ربط العلاقات العاطفية والخوض في تجارب الزواج، وإنشاء الديانات والتحريض على الحرب والاحتجاج ضدها ... كما توجد أيضا جماعات افتراضية للألعاب يفوق عدد أفرادها 100.000 فرد، يستهلك كل فرد منها حوالي 17 ساعة في الأسبوع.[11]

إن ظهور شبكة الانترنت قد مثل فرصة فريدة لبناء كيانات جماعية افتراضية جديدة على أرضيات ثقافية واجتماعية مختلفة، يتم فيها الحوار والتعبير عن طريق الفكر والخيال، وهو ما مكن غالبية سكان العالم من المشاركة و التبادل الحر للهواجس والأفكار والتطلعات والانتظار دون أن تكون لهم بالضرورة انتماءات قطرية واحدة أو اتصالات مادية مباشرة.

لقد تمكنت هذه الجماعات الإنسانية المتباعدة جغرافيا، المتقاربة افتراضيا ووجدانيا من إعادة رسم الحدود التي تفصل أجزاء العالم الحقيقي، إلى درجة تعطي الإحساس بالتيه والضياع، وتغرقنا عن طريق الرؤية والحلم والإثارة في بيئة افتراضية تعدل إدراكنا للعالم وتقلب مفاهيمنا القديمة وقناعاتنا الراسخة عن الحياة و المجتمع. [12]

2-1 أنواع جماعات المواطنة الافتراضية :

تتدخل عديد المتغيرات في تصنيف الجماعات الافتراضية على الخط من حيث آليات التفاعل ومدى الارتباط بين أفرادها، مثل حجم المجتمع ودرجة تطوره، ومرحلة نموه عبر الفضاء الخائلي، إلى جانب ثقافة الأعضاء الافتراضيين الذين ينتمون إليه. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى أبرز أنواع الجماعات التي تتشكّل على الانترنت، وتتمظهر من خلال أغراضها وغاياتها ومصالحها المشتركة. [13]

- الجماعات الروحية والدينية: تنشر معتقداتها وأفكارها من خلال دراسات نظرية وممارسات ميدانية وخدمات متميزة على الخط تقدم لفائدة أعضائها حول العالم.

- جماعات مصالح الغرباء في المجتمعات المحلية الطبيعية: يشكلون مجتمعهم الافتراضي محلّيا، ليغدو جامعا لاهتماماتهم المشتركة بصورة أكبر، وتمتد هذه الجماعات كونيا رغم أن أفرادها من المغتربين المحليين.

- جماعات العلماء والمهندسين والأطباء والباحثين، والتي يتم الانضمام إليها لممارسة الأنشطة المعرفية والتعلم المختص وتبادل الخبرات واقتسام الموارد العلمية والعملية. حيث يتواجد هذا المجتمع بقوة على الشبكة، ويضم حاليا أكثر من ثلاثة آلاف خبير ومصمم لتكنولوجيا الحواسيب يتواجدون في 90 دولة موزعة على القارات الخمس، يقدمون خدماتهم المتواصلة من خلال إتباع طرق خاصة في السلوك والتفاعل الافتراضي في ما بينهم.

- جماعات الأنشطة الترفيهية والهوايات الشخصية ، مثل مجتمعات الرياضيين وأصحاب الألعاب والتسالي.

وإلى جانب هذه الجماعات تنتشر مجتمعات أخرى للتطرف الأخلاقي والتشرذم الروحي والفكري مثل جماعات النازيين الجدد "New-Nasis"، وجماعات استغلال الأطفال، التي تتخذ من شبكة الأنترنت فضاء مناسبا لدعم أنشطتها واستقطاب المزيد من أعضائها. [14]

2-2 عوامل تطور العلاقات الافتراضية بين المواطنين الكونيين:

تتميز العلاقات الافتراضية بأنها غير ملزمة مقارنة بالعلاقات الطبيعية، ولكن ذلك لا يمنع عنها صفة التطور وإمكانية تحسين وتجويد عناصر التفاعل الاجتماعي بين مختلف الفاعلين الافتراضيين على الخط، لذلك يمكن أن تتوفر عديد العوامل التي تساهم بفاعلية في تطوير أي علاقة:

- **تأثير الجوار** "l'effet de proximité": حيث يعتبر علماء النفس أنه كلّما اقترب شخص ما منّا في مكان إقامته، كلما اقترب منا ماديا وزاد ذلك من إمكانية الانجذاب نحوه وإقامة روابط صداقة معه، غير أن هذا الأمر لا يتوفر في العالم الافتراضي باعتبار تغير شروط الانجذاب، لذلك فإن معنى الحوار قد يعوّض بعوامل أخرى كاللغة التي يمكن أن تحدّد حجم التفاعل وفضاءاته المتعدّدة، فالذي لا يتقن سوى لغة وحيدة لا يمكنه أن يتفاعل مع جماعات تستعمل لغات أخرى.

- **المظهر الفيزيائي** "L'apparence physique" لقد ثبت أن الأشخاص ذوي المظهر الجذاب يتمتعون بسهولة أكبر في خلق روابط اجتماعية مقارنة بالأشخاص الأقل لفتا للانتباه، الذين يبدون أكثر انعزالا وأقل احتكاكا بالآخرين.

وعلى مستوى الشبكات المعلوماتية، لا يعتبر هذا العامل هاما أثناء الاتصال الأوّلي لأن الميزة الأساسية لهذه الشبكات تكمن في تحطيم الحواجز الفيزيائية، ذلك أن الفرد الذي يعاني من صعوبات في الاحتكاك بالآخرين بسبب حرج ما في مظهره، بإمكانه أن يشارك إيجابيا في الحياة الاجتماعية الافتراضية، القائمة على التشبيك والتفاعل الفكري.

التشابه "La similitude»:إن نشوء علاقة قائمة على التشابه والتقارب بين الأشخاص في الآراء والأذواق عبر الشبكات يعتبر أسهل من نشوئها في الواقع الطبيعي للأفراد والجماعات. وغالبا ما لا يلاحظ هذا التشابه من خلال هذه الشبكات بالاتصال المباشر مع الشخص، بل قد يلاحظ ذلك عند قراءة شخص ما لرسائل أو كتابات شخص آخر في أحد فضاءات النقاش والحوار، فيرى أن ذلك يستجيب لاتجاهه الفكري، ويتوافق مع ذوقه في مجال معين، الأمر الذي قد لا يجده في الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

" **التقدير الإيجابي**، La considération positive : إذ يمكن أن تعبر المصافحات والابتسامات والعبارات اللطيفة عن إيجابية العلاقة الاجتماعية، أما عبر الشبكات فيكفي الدخول في المراسلة والتعبير عن مشاعر الإعجاب على شاشة الحاسوب ليعد ذلك تقديرا إيجابيا يحث على مواصلة تبادل الاتصالات. (15)

3 - الفضاءات الاتصالية الرقمية، الحاجات و الاستخدامات و فرضية المواطنين النشيطين:

لقد تجاوز مدخل الاستخدامات و الإشباعات المفهوم الذي كان سائدا بأن الجمهور هو مجرد متلق سلبي، فظهر بذلك مفهوم "الجمهور النشيط" (16)، الذي يبحث عن المضمون الاتصالي الثقافي الذي يلبي إشباعاته ويناسبه من حيث اتجاهاته الفكرية و مستواه الاجتماعي و الاقتصادي .

هذا و تجدر الإشارة إلى أن المضمون الإعلامي الواحد يحقق إشباعات متفاوتة لدى فئات مختلفة من الجمهور، فمشاهد العنف المنتشرة عبر الوسائط الرقمية الفردية أو الجماعية قد تكون مادة ترفيهية جذابة بالنسبة للبعض و مادة تعليمية بالنسبة للبعض الآخر.(17)

إن استخدام الجمهور(النشيط) لشبكة الانترنت يعبر بشكل من الأشكال عن مستوى معين من الوعي والإدراك بمدى استطاعة هذا الوسيط من خلال إمكانياته التقنية والثقافية المتنوعة في تلبية احتياجاته.

ونتيجة لهذا الاتصال التفاعلي، فإن الجمهور المستخدم قد يعمل على تغيير أولوياته واهتماماته نظرا لارتياده المستمر لمواقع جديدة ومختلفة تتيحها الطبيعة الاتصالية المفتوحة لهذه الشبكة وإقباله على زيارة مواقع مختلفة لأفراد وهيئات ومؤسسات، بل وإمكانية الحوار والتخاطب عن بعد وتبادل الرسائل عبر البريد الالكتروني.

إن مفهوم الجمهور الفاعل النشيط من أهم المفاهيم في دراسات الاستخدام والإشباع، التي تنظر إلى الفاعلين الاجتماعيين كأعضاء مشاركين ايجابيين، ينشطون بفاعلية لإشباع حاجياتهم من خلال الاختيار من بين الوسائل المختلفة، والانتقاء من بين الرسائل المتعددة بطرق وأساليب واعية ومقصودة و هادفة.

وفي إطار هذه الافتراضات، أصبح مفهوم الجمهور الفاعل النشيط ركيزة أساسية في دراسة العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الأفراد المواطنين ووسائل الاتصال الجماهيري.

فالجمهور النشيط وفق نظرية الاستخدامات والإشباعات هو الجهة الأساسية التي تتحكم في اختيار الوسيط الاتصالي واستخدامه من أجل إشباع حاجات اتصالية وثقافية عبر تأدية جملة من الأنشطة المحددة فهو إذن "جمهور الوسيلة الإعلامية الذي تشبع رغباته وتلبى حاجاته الكامنة في داخله، ومعنى ذلك أن الجمهور ليس سلبيا يقبل كل ما تعرضه عليه وسائل الإعلام، بل يمتلك غاية محددة مما تعرضه يسعى إلى تحقيقها". (18)

تعتبر المشاركة النشيطة من أهم المحددات الأساسية في نظرية الاستخدامات والإشباعات، وإذا كانت أبعاد مفهوم الجمهور النشيط تتحدد في الانتقائية، و تحقيق المنفعة، والعمديّة في الاستخدام فإن التوظيف الاتصالي والتثقيفي لشبكة الانترنت، لا بد أن يصل إلى درجات متقدمة في نشاط الجمهور، ويساهم في انتقال الأنشطة الجماهيرية من حالة الاستهلاك السلبي للمادة الثقافية الرقمية إلى التفاعل الاتصالي وإنتاج الرسائل والمحتويات عن بعد.

3 – 1 الثقافة في المنظور الاتصالي متعدد الوسائط :

لقد تحوّل الفضاء الاتصالي المعولم، إلى فضاء جديد للقيام بالمعاملات والمبادلات التجارية والاقتصادية والثقافية، حيث تمكن العالم من خلال شبكة الانترنت، من تحقيق التقارب الاجتماعي والثقافي، وإنتاج الذكاء، وتغيير عناصر الإنتاج ومؤشرات القدرة التنافسية للمؤسسات والمجتمعات الإنسانية، وغير ذلك كثير من التحولات التكنولوجية المتسارعة، التي ولدت أفضية افتراضية ناشئة لابد من النظر إليها بعين الاعتبار عند صياغة المادة الثقافية لفائدة المستفيدين المفترضين. لذلك، " تظل الثقافة ذات صلة حميمة بتكنولوجيا المعلومات والاتصال، يتبادلان معا مواقع الغاية والوسيلة تارة، والتأثير والتأثر تارة أخرى.(19)

إن أوجه التقارب بين منظومتي الاتصال والثقافة، يتجلى بوضوح في مستوى التعريفات والمفاهيم التي أسندت إلى هذه المنظومات بالإضافة إلى خصائصها المتداخلة ووظائفها المشتركة.

ولئن عرفت التكنولوجيا الاتصالية بأنها إعادة تشكيل للحدود الافتراضية، لتسمح بتدفق المعاني والرموز وجريانها بسرعة فائقة، وما يعنيه ذلك من كسر لمفاهيم المكان والزمان والداخل والخارج، فإن الثقافة في أحد تعريفاتها، هي التمثيل الرمزي للفكر والقيم و الأهداف لكل ما يعيشه الأفراد في المجتمع بكل شرائحه، وما

ينتجونه بواسطة تفاعلاتهم في مختلف الاتجاهات الحياتية فكرا وعاطفة وممارسة، وهو ما يسمى بثقافة العامة. (20)

وسواء أكانت الثقافة نتاجا فكريا أم حصادا اجتماعيا يشمل الفنون والمعارف والتقاليد والمعتقدات واتجاهات الترفيه والترويح، وكل ما يكتسبه الإنسان ليصبح عضوا في المجتمع، وسواء كانت ممارساتها تعبيرات رمزية عن الخصائص النفسية والذهنية لفئة اجتماعية معينة، أم رصدا لواقع اجتماعي وثقافي لمجموعة من الأفراد، فتكنولوجيا الاتصال هي وسيلة التعبير عن هذا النتاج الفكري والأنماط التواصلية المتعددة، بنفس القدر الذي تكون فيه وسيلة الحفاظ على الأرصدة الثقافية والحضارية للمجتمعات، وتسجيل عناصر التراث والذاكرة الجماعية، وشواهد هذا الواقع الاجتماعي وتفاعلاته المتنوعة.

ودون أن نخوض في التفاصيل الكثيرة لتأثير التكنولوجيا الاتصالية في الثقافة البشرية، منذ ظهور آلة "جوتنبرغ" "Gutenberg" في منتصف القرن الخامس عشر، فإننا نتناول الاتجاهات الرئيسية لهذا التأثير من خلال علاقته بمسألة الهوية الثقافية بالنظر إلى سيطرة المضامين الإعلامية والاتصالية العنيفة على مجتمعاتنا النامية، وتهديد التكنولوجيا المعلوماتية – أو ما يعبر عنها" يحي اليحياوي" "بتكنولوجيا الغزو اللين " – بالقضاء على التنوع الثقافي مثلما كادت سابقتها التكنولوجيا الصناعية، أن تقضي على التنوع البيولوجي. فالثورة التكنولوجية، في ميدان المعلومات والإعلام والاتصال، لم تزد وضعية الاختلال واللاتوازن بين الشمال والجنوب إلا تعمقا وتجذرا، لا فقط في ما يخص التقنيات والأعتدة، بل وفي ما يتعلق بالمضامين والمحتويات كذلك.

فالتحديات المطروحة على الثقافة في هذا السياق المعولم، تكمن في مخاطر الاستيعاب والتنميط على مستوى كوني، بمعنى أنها مهددة بإفراغها من مضامينها الجوهرية، وتحويلها إلى جملة من القيم والسلوكيات الاستهلاكية. إذ بقدر ما يفتح عصر الوسائط الرقمية آفاقا اتصالية كبيرة – توسع من حجم التبادلات والمحتويات الثقافية وتسهل التقارب والاتصالات البينية "Les intercompréhensions" بين الأفراد والجماعات – فإنه يفرض في الوقت ذاته، تجانسا مفرطا وتدميرا منظما لهويات ثقافية واجتماعية، لفائدة أخرى. (21)

2-3 في العلاقة بين التغير الاجتماعي والتغير الثقافي في عصر الاتصال :

يمر الزمن الافتراضي لعصر الاتصال بوتيرة أسرع من تلك التي يقوم عليها زمن التحوّلات الاجتماعية والثقافية، فما كان يخضع له الفاعل الاجتماعي طيلة تنشئته الاجتماعية أصبح يعيشه ضمن لحظات معدودة على مسار الزمن الافتراضي. حيث أن جملة ما يتلقاه الفرد من مفاهيم وأفكار وسلوكيات بصورة تدريجية عبر المراحل المتباعدة والمنفصلة في الزمن الاجتماعي، أصبح من الممكن اختصاره وتقديمه تزامنيا في فاصل زمني محدود، وذلك أمام تراجع فاعلية الحدود الجغرافية واستبدال المحلي بالعالمي، وتراجع القيود على دوائر الانتماءات الثقافية والنماذج الاجتماعية.

لقد توسط إعلام الفضائيات وشبكات الانترنت العلاقات الاجتماعية، واخترق خصوصيات الأذواق الفردية والنسيج الاجتماعي اليومي لجمهور المستخدمين. معنى ذلك أن الوسائط الاتصالية الجديدة، قد تحولت من خلال ممارساتها وصورها

ورموزها، إلى محرك أساسي للتغيير الاجتماعي والثقافي، وذلك بفعل تنوع وظائفها الترفيهية والتعليمية والثقافية.

فمن خلال هذه الوسائط، تحوّل التفاعل الاجتماعي إلى نسق من التغيرات الثقافية والاجتماعية المترابطة والمتحررة من الآليات التقليدية للضبط الاجتماعي، الذي تمارسه الجماعات الأولية والثانوية، والتي تتنازل لفائدة جماعات جديدة متنوعة وغير محددة الهويات، تتسرب عبر الشبكات الإلكترونية دون إجراءات رقابية واعية. وبذلك أصبحت الكفاءة الاجتماعية تقاس " بشفافية الفاعلية التواصلية بين المؤسسات والأفراد والجماعات، حيث لا تقاس العناصر الثقافية إلا بإنتاجيتها وقابليتها للتداول، مثلما لا تقاس الآراء والقيم إلا بآلياتها الاتصالية، وبحجم وشكل المعلومات المصاحبة لها.[22]

مما يدفعنا إلى التساؤل، في ظل هذا التقارب بين مجتمعات العالم وجماعاته الإثنية والثقافية على أسس اتصالية جديدة، عن ماهية التغييرات الاجتماعية والثقافية الحاصلة والعلاقة بينهما ؟، وما مفهوم الثقافة الاتصالية ؟، وما الذي يمكن أن تغيره في واقع المجتمع الحالي؟

4 – التغيير الاجتماعي للمجتمعات المحلية وإشكاليات الهوية الثقافية:

إن الثقافة في المنظور الاتصالي الجديد، هي عبارة عن حالة مجتمعية جديدة، معولمة وواسعة الإغراء، يستطيع كل فرد النفاذ إليها واستخدامها، الأمر الذي عزز سلطة الوسائط الاتصالية الجديدة، وأتاح لها اختراق مختلف السلطات التقليدية التي كانت تنازعها أدوارها وقدرتها على التأثير. وهو ما حول الاتصال الحديث، من سلطة رابعة موازية لبقية السلطات، إلى سلطة شاملة تهيمن وتتحكم في المضامين الثقافية من خلال أشكال انبهارية، تستدرج المستخدمين الجدد سواء كانوا فاعلين أم متفاعلين، نحو مجالات علائقية مشتركة تحترف المغالطات والتأويل.[23]

ويتم ذلك بدعوى إشاعة المعرفة وحرية التعبير، ومشاركة الجميع، ومحاربة الانغلاق الثقافي الذي ينكر على الهويات المحلية حقها في التطور والتفاعل والنمو.

إذ تفتح العولمة الاتصالية سبلا جديدة في الاندماج الاجتماعي من خلال الوسيط الشبكي الافتراضي الذي يتوفر على آليات جديدة في التعزيز والتعديل والتثبيت، ولكن آثارها تستهدف الهوية الثقافية، لأنها تمس الذوق والجماليات، وتمتد إلى أنشطة الفكر والعمليات الذهنية. إن الهوية مثلما جاءت في أغلب الدراسات الثقافية الأنتروبولوجية، هي : "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق المختلفة، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب". [24]

لذلك فإن هوية الإنسان أو الثقافة تتمثل في جملة الثوابت التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تترك مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة.

أما بالنسبة للثقافة، فقد اتفقت تعريفاتها الكثيرة، على أنها جملة الثوابت والمتغيرات، التي تساعد على تمييز الأفراد والمجتمعات عن بعضها البعض. وهي الخاصية التي تؤكد على الصفة الإنسانية للبشر، وجملة الأساليب والسلوكيات التي يسير على هديها الناس في حياتهم.

وفي إطار علاقتها بالهوية، يعرف "إدوارد تايلور" الثقافة بأنها كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات المشتركة التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع، فهي إذن كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع. [25]

وأمام التغيرات الجذرية التي طالت العملية الاتصالية وجعلت منها محورا أساسيا في المنظومة الاجتماعية الجديدة، أصبحت الشعوب والثقافات الإنسانية أكثر حاجة للبحث عن شروط ومواصفات تؤكد اختلافها وتمايزها، في اتجاه تكوين علاقة واضحة بين الأنا والآخر. وهو ما يجعل السؤال الإشكالي للهوية الثقافية أمرا مبررّا إزاء تسارع التحولات العالمية، وتهاوي الحدود الزمنية والجغرافية بسبب تطور تكنولوجيا الاتصالات والتقارب الإنساني، وانتشار أنماط ثقافية وسلوكيات اجتماعية تنتمي إلى مرجعيات فكرية غربية، تهدد ما يسمى الهويات المحلية أو الثقافات الوطنية.

4-1 تأثير العولمة الاتصالية على المعتقدات :

تعتبر الشبكات الاتصالية في نظر الكثيرين مجرد وسيلة لنقل المحتوى الديني والعقائدي للشعوب، ولكن تحول الظاهرة الدينية إلى مسرح الفضاء الافتراضي قد طرح العديد من الإشكاليات، لعل أبرزها، أن الوسائط الاتصالية تستخدم من قبل جهات عديدة للاعتداء على معتقدات ومقدسات الشعوب، حتى أن بعض المضامين الإعلامية الغربية والأمريكية من كتابات وأغاني وأفلام وألعاب ومواد إعلانية ودعائية، تمارس السخرية والتهجم على الأديان، وخصوصا الدين الإسلامي، الذي تصفه "بالخطر الأخضر الجديد" الذي يهدد العالم الحر وأسلوب معيشته، بعد زوال "الخطر الأحمر" المتمثل في الشيوعية السوفيتية. وهي ذريعة تتخذها أمريكا للإبقاء على زعامتها للمعسكر الغربي، ومبررا لتوسيع دائرة نفوذها في العالم بحجة تطويق المد الإسلامي.(26)

لقد أدى المدّ الثقافي لتكنولوجيا المعلومات والاتصال إلى انحسار الخطاب الديني في كثير من المجتمعات نتيجة سيطرة إيديولوجيات الوسائط الإعلامية، التي تعمل في إطار مزجها بين حقائق عالم الواقع المادي، وخائليات عوالم الفضاء الرمزي، على معاداة كل ما هو عقائدي وسردي وقديم في المقدسات الإنسانية، وذلك لما تتسم به موارد هذه التكنولوجيا من تشظّ وتشعب. وهو ما يمكن أن يؤدي – من وجهة نظر الفكر ما بعد الحداثي – إلى انفراط عقد السرديات الكبرى، بما في ذلك النصوص الدينية والصروح العقائدية الخالدة.(27)

ولكن في مقابل ذلك، يمكن أن يحقق التعامل مع العوالم الافتراضية على المستوى التعبّدي، رغبة لا واعية في الخلاص مما ترمز إليه الرموز الدينية، أو ما تستدعيه من صور ذهنية مرتبطة بفضاء الكنيسة والمسجد والمعبد، وسيطرة مكان العبادة بصورة عامة، مثلما هو راسخ في مخيال الشعوب وعقائدها.

وبذلك تكون شبكة الانترنت قد ساهمت في تجريد الطقوس العقائدية من معانيها المجردة، وقربت الفقيه والقسيس والحاخام من جمهوره ومريديه، فلم تعد خطبهم وتوجيهاتهم ذات مفعول مباشر لمتتبعيها عبر الشبكة، نظرا لضعف الانخراط الكلي للمؤسسات الدينية في الفضاء الرقمي، من حيث استفادتها وتطويعها لتكنولوجيا الاتصالات بشكل واسع، يسمح لها بالوصول إلى المتدين الافتراضي، باعتباره منتقدا ومتمردا ومنفتحا على مجمل الخطابات الإيمانية لكل الأديان السماوية والممارسات العقائدية الأخرى. فتصبح مسألة الإيمان مرتبطة عبر الانترنت، بشخص المبشر والخطيب أكثر من ارتباطها بجوهر الدين ذاته.(28)

4-2 تأثير العولمة الاتصالية على اللغة :

تعبر اللغة عن اجتماعية الإنسان وطبقته وجذور نشأته، كما تكشف أيضا عن عقليته وقدراته وميولاته الفكرية، وهي الوسيلة المناسبة للتعبير عن الحاجات والرغبات، وتنمية الأفكار والمهارات والتجارب. فاللغة هي الذات، وهي الهوية الثقافية لكل مجتمع، وما من

حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشري إلا ويستبطن في جوفه صراعا لغويا، حتى قيل إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس صراعاتها اللغوية. [29]

وجاءت العولمة الاتصالية، لتضع اللغة الإنسانية في صدارة مواضيع الصراع والصناعة الثقافية، مما يدفعنا إلى طرح السؤال التالي : هل باتت اللغة كمستوعب للهوية الاجتماعية، تنهل أسباب وجودها وشخصيتها من مصادر فوق محلية أو خارج المجتمع الأصلي للجماعات الإنسانية ؟، وهل يمكن أن تصبح اللغات المحلية بفعل التقارب المعلوماتي موحدة على مستوى العالم؟.

لقد أصبحت اللغة أشد الأسلحة الإيديولوجية فتكا، وذلك بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والأعمال، سيطرتها على وسائط الإعلام والاتصال الجماهيري. حيث تبلغ نسبة المعطيات والمعلومات الإلكترونية باللغة الإنجليزية 88 % من مجموع المواد المتداولة عبر شبكة الانترنت. [30]

وهو ما يؤكد هيمنة الإنتاج الثقافي الإنجليزي على المحتويات الثقافية والاتصالية للفضاء الافتراضي، وما يتبع ذلك من الترويج لقيم اجتماعية مختلفة عن قيم وعادات الشعوب التي لا تنطق بهذه اللغة.

3-4 تأثير العولمة الاتصالية على القيم والعادات :

أصبحت العولمة الاتصالية عن طريق وسائطها العديدة ساحة ثقافية مؤثرة، من خلال مساهمتها في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية عبر ما تقدمه من منتجات ثقافية وترفيهية مختلفة.

وذلك بفعل غياب شبه كلي للخصائص والمقومات الثقافية المحلية ضمن ما يقدم من مواد للتسلية إنتاجا وتداولا، حيث تسير الكثير من القيم الأصلية نحو التلاشي والاندثار والتغيير بفعل تأثير ثقافة المشهد واللذة، التي لا يتم استهلاكها وتمثل أبعادها خارج دائرة العملية الاتصالية والاجتماعية، فهي إذن، "أشكال تربوية، وأشكال توعية إيديولوجية جديدة". [31]

إنها قيم اجتماعية ومعايير سلوكية معولمة، لا يتم نشرها عن طريق الترغيب والإغراء فحسب، بل يتم ذلك في كثير من الحالات باستخدام الاتفاقيات والضغوطات الدولية، من خلال المؤتمرات ومقتضيات الشرعية الدولية، وغيرها من الآليات التي يعتمدها النظام العالمي الجديد من أجل عولمة الهويات، وإنتاج عادات وقيم إنسانية مشتركة، تتمثل في جملة من "المداخل الفكرية العامة والجذابة" [32] ، التي تستقطب اهتمام الحكومات والمؤسسات وأقلام المفكرين، فتتحول عبر الوسائط الجديدة للاتصال إلى قناعات ذهنية وممارسات وسلوكيات يومية في حالة نمو وتطور مستمر.

إن هذا التأثير الاتصالي العميق، وما خلفه من تهجين للثقافات المحلية، لا يمكن قبوله كمجرد آلية من آليات التطوير والتحديث الاجتماعي كما تدعي القوى الرأسمالية العظمى. لأنها عولمة إيديولوجية للهويات تعكس إرادة الهيمنة على العالم على أساس مواطنة كونية جديدة عابرة للحدود ، بما أنها تنفي الآخر من أبعادها الذاتية المركزية، وتعمل على استبدال الصراع الإيديولوجي بمفهوم الاختراق الثقافي الذي راهنت من خلاله الولايات المتحدة الأمريكية على فهم هوليودي للحضارات، يقوم على الصراع والتحطيم والإلغاء.

لقد أصبح الفعل الاتصالي القائم على التقنية الميزة الأساسية "لمجتمعات ما بعد الحداثة، حيث لم تعد قيمة التواصل ومقياس جودته، قائمة على الحميمية والتفاعل، بل غدا الاتصال من أجل الاتصال وكأنه شرط من شروط التغيير الاجتماعي والثقافي، والانخراط في المجتمعات آنفة الذكر. فالأدوات الاتصالية والمعلوماتية قد تحولت، إلى بنيات تحتية لدعم

إيديولوجيا الاتصال وعولمة الثقافة. هذه الإيديولوجيا التي لا تطال المحتويات إلا بدرجات أقل، على اعتبار أن " المحدد الأدواتي " هو الطاغي في هذا المضمار، حيث تتحول بموجبه المجتمعات والجماعات البشرية إلى كتلة موحدة منصهرة، أو يراد لها أن تنصهر، في فكر واحد وثقافة واحدة، ونموذج للتمثل واحد. (33)

وبالتالي فتموقع إيديولوجيا الاتصال بين الجماعة الثقافية وواقعها، لا يعطي السلطة المتحكمة، إمكانية صياغة الأحداث صياغة واحدة فحسب، بل ويمنحها أيضا سبل تحويل الصورة ذاتها إلى حقيقة لا تقبل الطعن أو المزايدة أو التشكيك.

إن تغييرات عصر الاتصال، لا تفصل بين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي، بعد أن نجحت التطورات التقنية للإعلامية ووسائل الاتصال من خلال بضائعها وأسواقها الجديدة، في توحيد النماذج الاجتماعية والثقافية عبر توسيط التقنيات الاتصالية والدعائية التي تصاحب الصور والمعلومات والأفلام في ميدان تصنيع الثقافة. (34)

قائمة المراجع والهوامش:

1)- حمدي قنديل، الإعلام العربي والتّكنولوجيا الحديثة للاتصال، الثّورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، تونس مطبعة المنظّمة العربيّة للتربية والثّقافة والعلوم، 1991، ص 5.

2)- عبد المجيد ميلاد،المعلوماتية وشبكات الاتصال الحديثة، اندماج التكنولوجيات، سينياكتن، جوان 2003 ، ص173.

3)- محمد بن مختار الشنقيطي ، الأنترنت ، ثورة الفقراء في عصر التواصل ، 2006/11/12 . http://www.aljazeera.net/NR/exeres/08806D71-3787- 977E1A.htm

4)- (G) wadcermen, De L'espace National à la mondialisation, Edition Ellipse, Paris, 1995, P.7.

5)- عبد المجيد ميلاد ، المرجع السابق، ص174.

6)- أحمد الكسبي ، الشّباب والتّقنيات الحديثة للمعلومات، السرد وجاس، 1998، ص18.

7)- محمود تيمور عبد الحسيب، محمود علم الدّين ، الحاسبات الإلكترونيّة وتكنولوجيا الاتصال، دار الشروق، ، ص88.

8)- مصدق الجليدي، الدّيمقراطيّة المعرفيّة: العوائق والفرص المتاحة، مجلّة الحياة الثّقافيّة، تونس، وزارة الثّقافة والمحافظة على التّراث، السّنة 30، العدد 169، نوفمبر 2005، ص 89.

9)- عبد المجيد ميلاد، المرجع السّابق، ص98.

10)- نفس المرجع، ص 89 و 90.

11)- حسيبة قيدوم، "الأبعاد النفسية والاجتماعية للعالم الافتراضي"، المجلة العربية للعلوم والمعلومات عدد 7، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 2006 ، ص 09.

12)- Ramonet ignacio, la tyrannie de la communication, Edition Galilée, paris 1999. P168.

13)- علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي، مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، سلسلة عالم المعرفة عدد 347، الكويت ط1، 2008 ، ص82.

14)- نفس المرجع، ص84.

15)- حسيبة قيدوم، مرجع سابق، ص9 – 10.

16)- أماني فهمي، دوافع استخدام المرأة المصرية لقنوات التليفزيون الدولية، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، العدد الثاني، القاهرة، 1997، ص 123.

17)- نفس المرجع، ص 123.

18)- Jay Black &Jennings Brayant Introduction to communication: understand the past, experience the present, Brown Q.Bench Mark, 1995, 4th ed, p33.

19) - نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، عدد 184، الكويت، 1994، ص263 .

20) - Jean-Marie AUSIAS,L'anthropologie contemporaine Ed. PUF, Paris, 1976, P 117.

21- Edgar Morin, Sami Nair, une politique de civilisation, arléa, Paris, 1997, p82

22)- جلال التليلي،" العولمة ووسائل الاتصال : الثورة الاتصالية والتغيرات الاجتماعية"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 28، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، المطبعة الرسمية، تونس، 2004، ص 26.

23)- نفس المرجع، ص 47.

24)- الشريف الجرجاني، التعريفات، دار عالم الكتب،بيروت ،1987 ،ص314.

25)-كامل أبو صقر، العولمة التجارية والإدارية والقانونية، منشورات دار الوسام ودار مكتبة الهلال، ط1، بيروت، 2000، ص 380-381.

26)- جلال التليلي، مرجع سابق.

27)- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مرجع سابق، ص 411.

28)- عبد النور إدريس، النشر الإلكتروني العربي بين المصادرة وتحقيق الذات، المؤتمر العربي الأوّل للثقافة الرقمية، طرابلس-ليبيا، من 04 إلى 06-03-2007، وثيقة إلكترونية، 03-10-2009.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=91676.

29)- نفس المرجع، ص 228.

30)- محمد بن سعد التميمي، العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافية العربية المعاصرة، ط1، 2001، ص111.

31)- هربرت شيللر، عبد السلام رضوان، المتلاعبون بالعقول، سلسلة عالم المعرفة، العدد 106، الكويت، ص 104.

32)- هي مفاهيم ومشاغل فكرية جديدة من إنتاج العالم المتحضر، تستخدم كغطاء لسياسات الهيمنة في العالم المعاصر، مثل نشر الديمقراطية وثقافة حقوق الإنسان والمشاركة في صنع القرار وثقافة الإبهار العلمي والتقني كمعيار وحيد للتطور والتحضر، والثقافة الجنسية المتحررة، واقتران العنف والتطرف والتعصب والإرهاب بالدين الإسلامي.

33)- علي محمد رحومة، مرجع سابق، ص 40.

34)- نفس المرجع، ص 44.